بسم الله الرحمن الرحيم

ترتفع الأمم حينما تعلو همم رجالها، حقيقة يؤكدها استقراء التاريخ وأحداثه، واسألوا التاريخ عن الصحابة رضي الله عنهم، الذين حطموا عروش الأكاسرة والقياصرة، وأقاموا دولة عظيمة الأركان، اسألوا عن فتوحات الشام ومصر والشمال الإفريقي والهند والسند وبلاد ما وراء النهر، وفتوحات الأندلس وجنوب فرنسا.

اسألوا التاريخ عن علي وخالد وأبي عبيدة والمثنى وشرحبيل ويزيد وعمرو ومسلمة بن عبد الملك وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز ومحمد الفاتح وغيرهم من أبطال صنعهم الإسلام.

سنعيش اليوم مع بطل تحققت على يديه نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأزال به الله تبارك وتعالى ملك قيصر الروم، إنه البطل الذي جعل الكنائس تدق أجراسها ثلاثة أيام ابتهاجًا بوفاته، البطل الذي أعلنت أوروبا يوم رحيله عيدًا قوميًا لها، إنه محمد الثاني بن مراد الثاني، والذي تلقّب بمحمد أبي الخيرات محمد الفاتح.

تربى منذ صغره على حب الله ورسوله وعلى الفروسية والشجاعة، وشهد وهو طفل صغير مع والده السلطان مراد الثاني معارك كثيرة هيأت له كل أسباب النبوغ والتفوق، وأجزل والده العطاء لعلماء الدين والدنيا كي يقوموا بتنشئته تنشئة سليمة.

وكان فتىً عنيدًا جدًّا يصعب السيطرة عليه، فأشار بعضهم على والده أن يستقدم عالميْ ذلك العصر الملا أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان يسميه محمد الفاتح فيما بعد :أبو حنيفة العصر.

والشيخ آق شمس الدين وهو من أحفاد الصديق أبي بكر رضي الله عنه، واسمه محمد بن حمزة الدمشقي، وكان من أورع علماء عصره، كما كان طبيبًا ماهرًا وله مؤلفات كثيرة في فنون الطب، تأثر به محمد الثاني تأثرًا عظيمًا، وتعلق به تعلقًا شديدًا، وكان يقول لرجال دولته: الحمد لله الذي أوجد رجلاً مثل الشيخ آق شمس الدين في مملكتي.

حرص الشيخ رحمه الله على تحفيظه القرآن الكريم ولم يكمل العاشرة من عمره، كما كان يصحبه إلى مضيق البوسفور ويشير إلى قلعة أناضول التي بناها جد محمد الثاني على الضفة الآسيوية لمضيق البوسفور، كان يشير إليها ويقول له: بناها جدك لأجل حصار القسطنطينية، ثم يشير إلى ناحية الشرق ويقول له: هناك دفن الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري الذي استضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم إلى المدينة مهاجرًا.

ويروي له الأحاديث الكثيرة في فضائل فتح القسطنطينية، حرصا من الشيخ على غرس معاني العزة في نفس الصبي، فقصّ عليه سيرة النبي الكريم وصحابته وسلفنا أمتنا الصالح.

كان محمد الثاني يجيد سبع لغات العربية والفارسية واللاتينية والإفريقية والصربية والإيطالية، فضلاً عن التركية، كما كان شاعرًا أديبًا، وله ديوان شعري باللغة التركية.

درس الرياضيات والفلك والعلوم الإدارية والعسكرية، كما درس علوم الهندسة الميكانيكية، كل ذلك لنيل المنقبة والشرف وتحقيق ذلك الحلم الذي استعصى على إحدى عشرة محاولة إسلامية طيلة أكثر من ثمانية قرون متواصلة، ألا وهو فتح القسطنطينية.

توفى السلطان مراد الثاني ليتولى الأمر بعده محمد الفاتح. فشرع منذ اللحظة الأولى في تحقيق حلمه الذي طالما داعب خياله، وهو فتح القسطنطينية، فبنى على المضيق الأوربي لمضيق البوسفور قلعة عظيمة بلغ ارتفاعها اثنين وثمانين قدمًا، وتبعد ستمائة وستين مترًا عن قلعة جده بايزيد، مكنته هذه القلعة -والتي عرفت بـ(روملي حصار) يعني قلعة الروم، مكنته مع قلعة جده من التحكم في مضيق البوسفور.

ثم استقدم مهندسًا مجريًا يدعى (أوربان) كان ماهرًا في صناعة المدافع، استقدمه وأجزل له العطاء ووفر له الرجال والإمكانات لأجل تصميم المدافع، بل ساعده بنفسه.

فكان مما أنتجه المدفع السلطاني الذي يزن سبعمائة طن ويطلق قذيفة تزن ثلاثمائة كيلو جرام لمسافة كيلو مترين تقريبًا، وكان يحتاج إلى ساعتين لحشوه، ويحتاج إلى مائة ثور وسبعمائة رجل لجره.

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة ، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه.

وصل الجيش الإسلامي إلى القسطنطينية ونصب حولها المدافع وكانت أربعة وستين مدفعًا، وبدأ دوي الانفجارات يسمع صوته على بُعد 25 كيلو مترًا وتحدث قذيفته حفرة في الأرض بعمق ستة أقدام تقريبًا! فخلع صوت دويه قلوب الصليبيين، وأخذوا يرممون على الفور ما تهدم من أجزاء السور المختلفة وأظهروا مقاومة عنيفة بقيادة الجنوي (جوستنياني)، وجاءت خمس سفن من قبل بابا الفاتيكان تحمل السلاح والرجال، وأصدر السلطان محمد الثاني أوامره بضرورة إغراق هذه السفن الخمسة فإن لم يتيسر إغراقها فلا أقل من منعها من دخول المضيق، وقامت معركة بين هذه السفن الخمس وبين قطع من الأسطول الإسلامي، وفجأة هبت ريح عظيمة كانت في صالح الصليبيين فنشرت السفن الخمسة أشرعتها وحملتها الرياح مسرعة إلى مضيق القرن الذهبي ففتحت السلسلة أمامها ثم أغلقت فور دخولها.

ثم قرر رحمه الله أن يسحب السفن عبر اليابسة وينزلها إلى مضيق القرن الذهبي متجاوزًا تلك السلسلة اللعينة، وعرض فكرته على القادة فأبدوا حماسًا شديدًا، فأمرهم بتكثيف نيران المدفعية ليلاً ونهارًا برًا وبحرًا حتى ينشغل الصليبيون عن تلك الجبهة البرية الجديدة التي ستفتح، وبدأ سلاح المهندسين بالعمل على تسوية الأرض قدر إمكانهم، والمنطقة منطقة تلال وسهول وجبال وتمتد بطول خمسة كيلو مترات من الجبال تقريبًا، فقاموا بتسوية الجبال قدر إمكانهم، ثم أحضروا الكتل الخشبية العظمية وطلوها بالشحم، ثم جاءت الثيران ومعها الجنود يسحبون السفن عبر ذلك الطريق الخشبي الذي تم طلاؤه بذلك الشحم.

وفي صباح اليوم التالي تفاجأ الصليبيون بمشهد تسمروا له جميعًا، فقد رأوا سفينة تحمل العلم العثماني الذي يتوسطه الهلال تنزل إلى مضيق القرن الذهبي متجاوزة تلك السلسلة، فنظروا في مياه القرن الذهبي فإذا بهم يجدون سبعين سفينة إسلامية وقد أنزلت بهذه الطريقة وبهذه الحيلة التي لم يفعلها أحد في التاريخ كله إلا السلطان محمد الثاني -رحمه الله.-

ثم جعلت القذائف تنطلق نحو المدينة كأنها المطر، وانفجر المدفع السلطاني نظرًا لكثافة وشدة النيران، وقتل كل من كانوا حوله بمن فيهم مصممه أوربان.

وقام السلطان محمد الثاني بإصلاح المدفع بنفسه، فعاد المدفع يعمل بكفاءة عالية، ثم كانت أحداث طويلة أنصحكم بالاطلاع عليها لتطلعوا على همة أولئك الرجال.

وفي اليوم الخمسين للحصار، أرسل السلطان محمد الثاني برسالة إلى قسطنطين الحادي عشر إمبراطور القسطنطينية يدعوه فيها إلى تسليم المدينة، ويعده بأنه لن يتعرض للكنائس أو لأحد بسوء، فرفض

الإمبراطور إلا أن يقاتل ويقاوم حتى النهاية، فقال السلطان محمد الثاني: حسنًا غدًا يكون لي في القسطنطينية عرش أو قبر.

دام الحصار 54 يومًا، وفي ليلة الثلاثاء 20 من جمادى الأولى عام 857هـ والتي وافقت 29 من مايو عام 1453م انطلق السلطان في جوف الليل إلى خيمة شيخه آق شيخ الدين، فأخبره الحراس أن الشيخ -رحمه الله- قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ولو كان السلطان، فذهب السلطان غير بعيد ثم عاد إلى الخيمة من الخلف واستل خنجره وأحدث بالخيمة ثقبًا صغيرًا، ونظر فوجد الشيخ ساجدًا يبكي يدعو الله -تبارك وتعالى- أن يفتح على المسلمين القسطنطينية، فاستبشر السلطان استبشارًا عظيمًا، وأيقن أن النصر آتٍ بإذن الله، فعاد إلى المعسكر وأمر الجند أن يشعلوا نارًا عظيمة وأن يحتفلوا بالنصر، ونظر الصليبيون من فوق أبراجهم ومن فوق أسوارهم فظنوا أن النار قد شبت في معسكر المسلمين، ولكنهم فوجئوا بصوت أهازيج النصر وأناشيده، فأيقنوا وأدركوا أن المسلمين قد عقدوا العزم على الصدمة الكبرى غدًا.

وبالفعل وعقب صلاة الصبح أمر السلطان -رحمه الله- سلاح القوات الخاصة من الإنكشارية أن يعملوا على رفع الأعلام الإسلامية العثمانية فوق سور مدينة القسطنطينية، وبعد قتال عنيف تمكنت القوات الخاصة من رفع الأعلام فوق سور القسطنطينية المحيط بها من كل جوانبها.

ليتم بعد قتال ضار وعنيف فتحها ويسميها الفاتح إسلامبول أو إسطنبول، ثم انطلق يواصل الكفاح والجهاد، ففتح بلاد البوسنة والهرسك وبلاد الصرب وبلغاريا ورومانيا وألبانيا والجزر الجنوبية لليونان وشبه جزيرة القرم في أقصى جنوب الاتحاد السوفيتي السابق، وضرب الجزية على المجر وتشيكوسلوفاكيا مائة ألف دوك ذهبي على كل واحد.

ثم جاءته رسالة من بابا الفاتيكان يدعوه فيها إلى النصرانية، فمزق الرسالة وعقد العزم على فتح إيطاليا، وأراد أن يستأثر بالمنقبة والشرف من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلقد بشر صلى الله عليه وسلم أن القسطنطينية تفتح أولاً، وبشر أن رومية -وهي الفاتيكان الآن- سوف تفتح بعد ذلك، وستفتح إن شاء الله مصداق نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم، فأراد محمد الفاتح وقد تحققت على يديه النبوءة الأولى أن تتحقق على يديه أيضًا النبوءة الثانية، فأخذ يجهز جيشًا عظيمًا، وأخذ يرتب أموره ولكن شاء الله -عز وجل- أن يمرض السلطان مرضًا شديداً، وأحس أنه الأجل المحتوم.

وفي اليوم الرابع ليلة الخامس من ربيع الأول عام 886هـ فاضت روحه -رحمه الله- إلى بارئها، وسكن الجسد الذي لم يهدأ لحظة واحدة في سبيل الله

محمد الفاتح قصة بطولة حقيقية من بين مئات القصص التي يزخر بها تاريخنا المجيد، والتي ما أحوجنا إلى استخراجها من بين دفائن الكنوز؛ لنتعرف عليها أولاً، ولنرسخ في نفوس نشئنا وأبنائنا العزة والتمكين في زمن غربة الإسلام وندرة الرجال.

وبفضل الله بعد ستمائة عام أبى الله تعالى إلا أن ينتصر الإسلام في مدينة الإسلام إسلامبول، وأن يخذل كل الذين دعموا كليشدار الكاره لله ولرسوله وللعرب المسلمين.

فنسأل الله أن يحمي تركيا وكل بلاد الإسلام من كيد الكائدين ومكر الماكرين

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**